

لمحات في إعجاز سورة الحديد

بقلم

الدكتور حسن محمد با جودة

أستاذ الدراسات القرآنية البينانية

جامعة أمّ القرى ، بمكة المكرمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين ، سيّدنا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :
فهذه الدّراسة بعنوان : لمحات في إعجاز سورة الحديد ، تهدف إلى إلقاء الضّوء على بعض المسائل المتعلّقة بالسّورة الكريمة، وقد تمّ ذلك في التمهيد ، وعلى بعض اللّمحات في إعجاز السّورة الكريمة . لقد تجلّى ذلك في محاولة تبيين وحدة السّورة الكريمة عضويّاً ، وفي الوقوف عند صدر السّورة الكريمة، من زاوية اشتغال الصّدر على عددٍ كبيرٍ من أسماء الله تعالى الحسنى المنطوقة والمفهومة ، ومن زاوية إرضاء العقل بجميل المعاني وإشباع النفس بجميل المباني ، وفي الوقوف عند رائعة أسلوبية تحت عنوان : روعة الذّكر والحذف .

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يتقبّله ، إنّه جوادٌ كريم . وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنية البيانية
جامعة أمّ القرى
بمكّة المكرّمة

مكّة المكرّمة
يوم الثلاثاء ١٤٢٣/٨/٩ هـ
الموافق ٢٠٠٢ / ١٠ / ١٥ م

تمهيد :
مسائل متعلّقة بسورة الحديد

١- سورة الحديد من المدني من القرآن الكريم الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة^(١) وفي السورة الكريمة بعض الأدلة على ذلك . جاء في الآية الكريمة العاشرة النص على أنه لا يستوي عند الله تعالى من أنفق وقاتل في سبيل الله تعالى قبل فتح مكة ومن أنفق وقاتل بعد الفتح . قال عز من قائل : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وكان فتح مكة في شهر رمضان المبارك سنة ثمان^(٢) . وجاء في الآية الكريمة الثالثة عشرة ذكر المنافقين والمنافقات . قال عز من قائل : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُرَبَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾

(١) الإتيان ١/ ٤٣ وتفسير ابن كثير ٨/ ٣٠ والجلالين وتفسير غرائب القرآن وغرائب الفرقان ٢٧/ ١١٧ والحرر الوجيز ١٥/ ٣٩٦ والبحر المحيط ٨/ ٢١٦ وتفسير القرطبي ٦٤٠٥ .

(٢) السيرة النبوية ٤/ ٣١ .

٢- عدد آيات السّورة الكريمة تسعٌ وعشرون آية . وعدد كلماتها خمسمائة وأربعٌ وأربعون كلمة . وعدد حروفها ألفٌ وأربعمائة وأربعةٌ وسبعون حرفاً^(١)

٣- عن العرْباض بن سارية رضي الله تعالى عنه^(٢) أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقرأ بالمسبّحات قبل أن يرقد ويقول : إنّ فيهنّ آيةٌ أفضلٌ من ألف آية . يعني بالمسبّحات الحديد ، والحشر ، والصفّ ، والجمعة ، والتّغابن^(٣) والآية الكريمة المشار إليها في الحديث هي والله أعلم قوله^(٤) : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّهَرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٥)

-
- (١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٧ / ١١٧ .
 - (٢) ترجمته في تهذيب الأسماء واللّغات للإمام التّووي ١ / ٣٣٠ .
 - (٣) تفسير القرطبي ٦٤٠٥ .
 - (٤) سورة الحديد ٣ .
 - (٥) تفسير ابن كثير ٨ / ٣٠ .

لمحات في إعجاز السّورة الكريمة

١- وَحْدَةُ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ عَضْوِيًّا :

عنايتنا بتبيين وَحْدَةِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ عَضْوِيًّا لِسَبْعِينَ اثْنِينَ مَهْمِينَ .
السَّبَبُ الْأَوَّلُ هُوَ تَبْيِينُ أَخْذِ مَعَانِي السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ وَمَسَائِلِهَا
بِرِقَابِ بَعْضٍ ، بِحَيْثُ تَبْدُو هَذِهِ الْوَحْدَةُ الْغَايَةَ فِي التَّلَاحُمِ .
وَالسَّبَبُ الثَّانِي أَنَّ الْإِهْتِمَامَ بِتَبْيِينِ وَحْدَةِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ
عَضْوِيًّا لَهُ دَوْرُهُ أحيانًا فِي تَرْجِيحِ بَعْضِ الْآرَاءِ عَلَى بَعْضِهَا الْآخَرَ .
وَمِنَ الْأَدَلَّةِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ الثَّامِنَةَ وَالْعِشْرِينَ يَنَادِي
الْحَقَّ جَلَّ وَعَلَا فِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَيَأْمُرُهُمْ بِأَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى
وَيُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . لَقَدْ أَفْضَتِ الْعِنَايَةَ بِوَحْدَةِ
السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ عَضْوِيًّا إِلَى تَرْجِيحِ الرَّأْيِ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ
الْمُخَاطَبِينَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ هُمُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَلَيْسَ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لَهُمْ شَيْئًا مِنَ الْفَضْلِ
وَالْخُصُوصِيَّةِ لِأَنَّهُمْ ، حَسَبَ زَعْمِهِمْ ، أَبْنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحِبَّاءُهُ . إِنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَقَدْ خَصَّ عَزَّ وَجَلَّ أُمَّةَ
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَزِيدِ مِنَ الْفَضْلِ فِي هَيْئَةِ التَّصْيِينِ مِنَ
الرَّحْمَةِ ، وَالنُّورِ الَّذِي يَمْشُونَ بِهِ ، وَالْمَغْفِرَةِ لِدُنُوبِهِمْ .

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ ابْتِدَاءً إِنَّ سُورَةَ الْحَدِيدِ الْمَدِينِيَّةَ الْكَرِيمَةَ
تَتَأَلَّفُ مِنْ مَقْدَمَةٍ تَشْمَلُ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ السَّتَّ الْأَوَّلَ ، وَمِنْ

موضوع ينتهي بالآية الكريمة الرابعة والعشرين ، أي يشمل ثماني عشرة آية كريمة ، ومن خاتمة تشمل خمس آيات كريمات .

أ- لله تعالى الخلق :

سبح لله تعالى بقول : ﴿سبحان الله﴾ ونزهه عز وجل عن كل مالا يليق بجلاله وعظمته كل ما في السموات والأرض . وقد جاء في الآية الكريمة الرابعة والأربعين من سورة الإسراء قول الحق جل وعلا : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ والله تعالى هو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ، وتقديره وتدبيره .

الله تعالى ملك السموات والأرض ، فهو الملك الحي القيوم ، يحيى من يريد إحياءه ، ويميت من يريد إماتته ، فهو المحيي المميت ، وهو على كل شيء قدير ، فلا يعجزه عز وجل شيء في الأرض ولا في السماء .

هو جل وعلا الأول فلا شيء قبله ، والآخر فلا شيء بعده . وهذان الاسمان يستغرقان حقيقة الزمان . وهو جل وعلا الظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه . وهذان الاسمان

يستغرقان حقيقة المكان . وهو عزّ وجلّ بكلّ شيءٍ عليم، فلا يخفي عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .
الله تعالى هو الذي خلق السّماوات والأرض في ستّة أيّام
الله تعالى أعلم بحقيقتها . ثمّ استوى عزّ وجلّ على العرش ،
وهو في اللّغة سرير الملك^(١) استواءً يليق بجلاله وعظّمته عزّ
وجلّ . والله تعالى يعلم ما يلج في الأرض ويدخل فيها
كالمطر والأموات ، وما يخرج منها كالنبات والمعادن ، وما
ينزل من السّماء كالرحمة والعذاب ، وما يعرّج فيها ويصّبعد
كالملائكة والأعمال . وهو عزّ وجلّ معكم بقدرته وعلمه
وإحاطته^(٢) حيثما كنتم ، فهو عزّ وجلّ قد أحاط بكلّ شيءٍ
علماً وقدرة ، وهو بما تعمل بصيرٌ ، وبما توسوس به نفوسنا
خبير .

لله تعالى ملك السّماوات والأرض وما فيهما . وإلى الله
تُرْجَعُ أمور الخلائق يوم القيامة ، فيجازى كلّاً بعمله ، إن خيراً
فخير ، وإن شراً فشرّ .

(١) المعجم الوسيط : " عرش " .

(٢) المحرّر الوجيز ١٥ / ٣٩٩ .

ومن مظاهر قدرته جلّ وعلا أنّه يدخل اللّيل في النّهار
فيطول النّهار صيفاً بقدر ما نقص من اللّيل ، ويدخل النّهار في

اللَّيْلُ فَيَطُولُ اللَّيْلُ شِتَاءً بِقَدْرِ مَا نَقَصَ مِنَ النَّهَارِ . وَمِنْ مَظَاهِرِ
عِلْمِهِ جَلٌّ وَعِلَا أَنَّهُ أَحَاطَ عِلْمًا بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَدَخَّالَ النَّفُوسِ
، وَدَفَّائِنَ الْقُلُوبِ .

ب : لِّلَّهِ تَعَالَى الْأَمْرُ :

وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى
يَأْمُرُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَأَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِأَنْ تَوَدَّعُوا بِهِ جَلٌّ وَعِلَا وَبِرَسُولِهِ
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيمَانًا مُطْلَقًا ، وَأَنْ تَنْفَقُوا فِي سَبِيلِهِ عِزًّا
وَجَلًّا مِنَ الْمَالِ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ عَلَيْهِ وَوَكَلَاءَ ، وَالَّذِي وَرَّثْتُمُوهُ
عَنِ السَّابِقِينَ ، وَسِيرْتُهُ بَعْدَكُمْ اللَّاحِقُونَ ، وَالَّذِي أَعْطَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى
إِيَّاهُ فَضْلًا مِنْهُ وَنِعْمَةً . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ إِيمَانًا صَادِقًا وَأَنْفَقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى بِطَيْبِ نَفْسٍ وَرِضَا خَاطِرٍ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَجْرٌ
كَبِيرٌ ، وَثَوَابٌ عَظِيمٌ .

وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى إِيمَانًا مُطْلَقًا ،
وَالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوكُمْ لِتَوَدَّعُوا بِاللَّهِ تَعَالَى
رَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ عِزًّا وَجَلًّا مِيثَاقَكُمْ وَالْعَهْدَ الْمُؤَكَّدَ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي
عَالَمِ الدَّرِّ فِي صَلْبِ أَبِيكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا ، وَإِنْ دَمْتُمْ عَلَيَّ مَا بَدَأْتُمْ بِهِ^(١) جَاءَ فِي سُورَةِ
الْأَعْرَافِ^(٢) قَوْلَ الْحَقِّ جَلٌّ وَعِلَا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ
شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ
تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا
بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

الله تعالى هو الذي ينزل على عبده محمد صلى الله عليه
وسلم آيات الكتاب العزيز البينات ليخرجكم جلّ وعلا بما أوحى
إلى حبيبه صلى الله عليه وسلم ، وينقذكم من ظلمات الشرك
والجهل ، إلى نور الإيمان والعلم . وإنّ الله تعالى بكم أيّها الناس
لرءوف شديد العطف عليكم ، عظيم الرحمة بكم .

وما الذي يمنعكم أيّها المؤمنون من الإنفاق في سبيل الله
تعالى ولله ميراث السموات والأرض ، فكلّ ما على الأرض فإنّ،
ولا يبقى إلّا وجه الله تعالى ، ذو الجلال والإكرام .

ولا يستوي منكم أيّها المؤمنون من أنفق وقاتل في سبيل

(١) المحرّر الوجيز ١٥ / ٤٠٣ .

(٢) الآيات ١٧٢ - ١٧٤ .

الله تعالى من قبل فتح مكة^(١) ومن أنفق وقاتل من بعد الفتح . إنّ الذين أنفقوا وقاتلوا من قبل الفتح أعظم درجة عند الله تعالى لشدة الحاجة قبل الفتح إلى بذل كلِّ من نفيس المال والنفس . وكلاً من الفريقين وعده الله تعالى الجنة . والله تعالى بما تعملون أيها المؤمنون خبيرٌ ومطلّعٌ على حقيقة نواياكم والبواعث لكم على الإنفاق والقتال .

من ذا الذي يقرض الله تعالى قرضاً حسناً بالإنفاق في سبيله عزّ وجلّ واستباق الخيرات ، فيضاعف الله تعالى له الثواب ، وله أجرٌ كريمٌ وجزاءٌ عظيم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾^(٢)

للذين يقرضون الله تعالى قرضاً حسناً أجرٌ كريمٌ في الجنة يوم ترى أيها المخاطب المؤمن والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم : "لأنّ السّعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أنّ الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم. فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية، لأنّهم هم الذين بحسناتهم سعدوا ، وبصحائفهم البيض أفلحوا"^(٣) ويقال لهم لكم

(١) المحرّر الوجيز ١٥ / ٤٠٤ .

(٢) سورة الشعراء ٨٨ و ٨٩ .

(٣) الكشّاف ٣ / ٢٠١ .

البشارة اليوم بجنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً^(١) إنَّ الخلود في جنات النعيم هو الفوز العظيم والنجاح الكبير .

ذلك هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات^(٢) للذين آمنوا الذين كان النور دليلاً من الله تعالى لهم إلى الجنة^(٣) انتظرونا نقتبس من نوركم كي نتبين طريقنا ، قيل ارجعوا وراءكم وعودوا من حيث أتيتم فاطلبوا نوراً لكم ، فَضُرب بين المؤمنين والمنافقين بسور قيل هو سور الأعراف^(٤) ولذلك السور باب باطنه من جهة المؤمنين فيه الرحمة والجنة ، وظاهره من جهة المنافقين ومن ناحية ذلك الظاهر فيه العذاب والنار . ينادي المنافقون المؤمنين الذين يسمعونهم ألم نكن معكم في الحياة الدنيا نعايشكم ونعاملكم؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم بالنفاق ، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر ، وارتبتم في توحيد الله تعالى ، وفي صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي دين الإسلام ، وغررتكم الأمانيّ بأنّ في الوقت فسحةً للتوبة ، حتى جاء أمر الله تعالى

(١) تفسير ابن كثير ٤٢ / ٨ .

(٢) تفسير الطبري ١٢٩ / ٢٧ .

(٣) تفسير الطبري ١٢٩ / ٢٧ .

(٤) الجلالين وتفسير ابن كثير ٤٣ / ٨ وتفسير الطبري ١٢٩ / ٢٧ .

بالموت ، وغرّكم بالله تعالى الشيطان الرجيم ، فأطعمكم بالتّجاة من عقوبة الله والسّلامة من عذابه^(١) فالיום لا يؤخذ منكم فداءً ولا من الذين كفروا . ومأواكم النار ومثواكم ، هي أولى بكم^(٢) وبئس المصير النار .

بعد كلّ هذه الموعظ أما آن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم وترقّ لذكر الله تعالى ولما نزل من الحقّ وآي الكتاب العزيز الذي يهدي للطّريقة التي هي أقوم . أما آن للذين آمنوا الذين لا يزال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بين ظهرائهم ألاّ يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل وهم اليهود والنصارى الذين طال عليهم الأمد وبعُد الزّمن بينهم وبين كلّ من موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام فقسّت قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون قد فسدت أعمالهم . روى الإمام مسلم في صحيحه^(٣) أنّ عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إلاّ أربع سنين . وعلى المسلم حال قسوة القلب - لا سمح الله - ألاّ ييأس من رحمة الله تعالى . إنّ الحقّ جلّ وعلا يقول للمؤمنين :

(١) تفسير الطّبري ٢٧ / ١٣١ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٧ / ١٣١ وفتح الباري ٨ / ٦٢٧ و٦٢٨ والمحرر الوجيز ١٥ / ٤١٥

(٣) ٤ / ٢٣١٩ حديث رقم ٣٠٢٧ .

اعلموا أنّ الله تعالى يحيى الأرض بعد موتها بإنزال الغيث عليها .
قد بيّنا لكم آي الكتاب العزيز لعلكم تعقلون معانيها وتدركون
مراميها . إنّ الله تعالى الذي يحيى الأرض بعد موتها قادرٌ على أن
يحيى القلوب بعد موتها ويُلينها بعد قسوتها .

بل إنّكم أيّها المؤمنون مهَيِّئون لرفيع الدّرجات وأهل لأن
تكونوا من الذين أنعم الله تعالى عليهم من الصّديقين والشّهداء
والصّالحين . إنّ المتصدّقين والمتصدّقات والذين أقرضوا الله تعالى
قرضاً حسناً يضاعف لهم الثّواب وهم أجرٌ كريم . ويلاحظ أنّ هذا
المعنى يجرى في الآيتين الكرّيمتين الحادية عشرة ، والثامنة عشرة .
والذين آمنوا بالله تعالى وآمنوا برسله صلوات الله تعالى وسلامه
عليهم أولئك هم الصّديقون المبالغون في التّصديق والصّدق
والذين صدّقوا أقوالهم بأفعالهم . والشّهداء الذين قاتلوا لتكون
كلمة الله تعالى هي العليا عند ربهم في جنّات النّعيم لهم أجرهم
الكريم ونورهم العظيم .

وفي مقابل المنعم عليهم هنالك المغضوب عليهم . إنّ الذين
كفروا وكذبوا بآيات الله تعالى أولئك أصحاب الجحيم ، الذين
غرّتهم الحياة الدّنيا وخدعتهم زهرتها الذّابلة عن النّعيم المقيم في
جنّات النّعيم .

اعلموا أيها المؤمنون وأيتها الناس أنما الحياة الدنيا لعبٌ
بشأن ما لا يراد به وجه الله تعالى من أعمالٍ مقبولةٍ بمقياس
الإسلام لأنها فقدت شرط الإخلاص ، وهو بشأن الأعمال غير المقبولة
لأنها فقدت شرطي الإخلاص والصحة ، وزينة ظاهرة زائلة ، وتفاخرٌ بين
المقبلين عليها ، وتكاثرٌ في الأموال والأولاد . وإنّ مثل الحياة الدنيا في
سرعة زوالها وذبولها بعد إقبالها وزينتها كمثل غيثٍ نزل من السماء على
أرضٍ ميتةٍ فاهتزت وربت وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج . وقد أعجب ذلك
النبات الزّراع الذين عبّر عنهم بالكفار لأنهم يسترون البذور ساعة الحرث
 . وكما أعجب النبات الكفار أي الزّراع ، أعجبت الحياة الدنيا الكفار
الذين يسترون نعم الله تعالى عليهم ويكفرونها بشركهم . إنّ كلاً من الزّراع
والكفار مشغولٌ بخضرة النبات ونضرتة ، وبزهرة الحياة الدنيا على
التوالي .

إنّ الزّرع يُعجب الزّراع إلى حين ، ثمّ يهيج ويبس فتراه
مصفرّ اللون بعد الخضرة ، ثمّ يكون حطاماً وهشيماً تذروه الرياح
ويطوّح به الهواء . وإنّ الحياة الدنيا تُعجب أصحابها المفتونين بها
وسُرعان ما تدبل زهرتها، وتذهب نضرتها. إنّ للمقبلين على الدنيا
المنصرفين عن الآخرة عذاباً شديداً . وإنّ للمقبلين على الآخرة
المنصرفين عن الدنيا ، فهي ليست أكثر من جسر عبور ، مغفرةً
من الله تعالى ورضواناً : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

وإنّ الإقبال على الآخرة معناه الإقبال على الجنة .
والمؤمنون مأمورون بأن يسابقوا بعمل الخيرات إلى مغفرة من
ربهم عزّ وجلّ وجنّة عرضها كعرض السمّاء والأرض إذا
وُصلتا ببعضهما . فكيف بطول الجنّة . لقد أعدّ الله تعالى
تلك الجنة للذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله الكرام صلوات الله
تعالى وسلامه عليهم أجمعين . وإنّ ذلك الأجر الكريم فضل
الله تعالى يعطيه من يشاء من عباده . والله تعالى ذو الفضل
العظيم .

وإنّ من متعلّقات هذه الحياة الأولى أنّ الحقّ جلّ
وعلا جعل النّياس فيها محلّ اختبار بالضّيراء والسّيراء . وإنّ
على المؤمنين أن يعلموا أنّهم ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض
كالجذب والكوارث ، ولا في أنفسهم كالمرض والموت ، إلّا
وهو مدوّنٌ في اللّوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله تعالى تلك
الأنفس . إنّ ذلك على الله تعالى يسير . لكيلا تحزنوا أيّها
المؤمنون على ما فاتكم بل حولوا الحزن صبرا ، ولا تفرحوا
فرح بطرٍ بما أعطاكم بل حولوا الفرح شكراً لله تعالى على
نعمه العظيمة . والله تعالى لا يحبّ كلّ محتالٍ في نفسه فخورٍ
على غيره . إنّهم الذين ييخلون فلا يعطون الصّدقات للفئات

الثَّمان التي جعل الله تعالى لهم فيها حقًا . بل إنهم ليأْمرون الآخريْن
بالبخل بباعث الحبِّ الشَّدِيد للمال والحرص عليه وإن كان مال
الآخريْن . إنَّ الَّذي يعرض عن أحكام الله تعالى في المال فإنَّ الله
سبحانه وتعالى هو الغنيُّ عن جميع خلقه المحمود في كلِّ حال .
وهكذا يكون الحثُّ من السُّورة الكريمة للمؤمنين على
الإِنفاق في سبيل الله تعالى كبيراً ، لشدَّة الحاجة إلى المال في مجال
الدَّعوة إلى الله تعالى عموماً ، وفي وقت نزول السُّورة الكريمة
وساعة العُسرة خصوصاً .

ج : أرسل الله تعالى رسله بالبيِّنات :

وفي ختام السُّورة الكريمة يكون الحديث عن المرسلين عموماً
، وعن بعض أولى العزم من الرِّسل خصوصاً مع مراعاة التسلسل
التَّاريخيِّ . لقد أرسل الله تعالى رسله بالآيات البيِّنات التي يؤمن
بمثلها في العادة الأسوياء من البشر ، وأنزل معهم الكتب
السَّماويَّة ، وأنزل الميزان ليقوم النَّاس بالقسط ويتعاملوا بالعدل ،
وأنزل الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ، وهو عماد القوَّة التي يحتاج الحقُّ
لحمايتها . وفي الحديد منافع للنَّاس سلماً وحَرْباً ، وليعلم عزَّ وجلَّ

علم ظهورٍ من ينصره جلّ وعلا وينصر رسله مظهراً من مظاهر الإيمان بالغيب . إنّ الله تعالى هو القويّ وهو العزيز الذي لا يُغلب .

ثمّ جاء ذكر ثلاثة من أولى العزم من الرّسل بصريح اللفظ، وهم نوحٌ وإبراهيم وعيسى عليهم صلوات الله تعالى وسلامه ، وذكُرْ اثنين ضمناً وهما موسى عليه السّلام وأتباعه اليهود من أهل الكتاب الذين نصّ عليهم السّياق ، ومحمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم الذي أمر الحقّ جلّ وعلا النّاس أجمعين باتّباعه ، والذي جعل أمّته خير أمةٍ أخرجت للنّاس وغمرها بمغفرته ورحمته وفضله .

لقد أرسل الله تعالى نوحاً عليه السّلام أوّل رسولٍ أرسله عزّ وجلّ إلى البشر ، وإبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء ، وجعل في ذريّتهما النّبوة والكتب السّماوية ، فمن هذه الذريّة مهتدٍ وكثيرٍ منهم فاسقون خارجون عن الصراط المستقيم . ثمّ أتبعنا على آثارهم برسلانا ، وأتبعنا بعيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل ، وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتّبعوا عيسى عليه السّلام شفقةً ورحمةً . ورهبانيّةً بالانقطاع للعبادة والابتعاد عن النّساء ابتدعوها من عند أنفسهم ، ما فرضناها عليهم ، وما ابتدعوها إلّا ابتغاء مرضاة الله تعالى ، فما رعوها حقّ رعايتها ،

وما التزموا بتبعاتها ، فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وثواب أعمالهم ، وكثير منهم فاسقون خارجون عن الصراط المستقيم .
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله تعالى حق تقواه ، وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم يعطكم جلّ وعلا نصيبين من رحمته التي وسعت كل شيءٍ وحيي ، ويجعل لكم نوراً تمشون به في الأولى والآخرة ، ويغفر لكم ذنوبكم . والله تعالى غفورٌ رحيم .
منحّتكم يا أمّة محمد هذا الفضل ليعلم أهل الكتاب الذين يزعمون أنّهم أبناء الله تعالى وأحباؤه وليدرك اليهود والنصارى أنّهم لا يقدرّون على شيءٍ من فضل الله تعالى منعاً ، وأنّ الفضل بيد الله تعالى وحده دون سواه ، يؤتية من يشاء من عباده . والله تعالى ذو الفضل العظيم والخير العميم .

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنّما أجلكم - في أجل من خلا من الأمم - ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس . وإنّما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجلٍ استعمل عمّالاً فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراطٍ قيراطٍ ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراطٍ قيراطٍ . ثمّ قال : من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراطٍ ؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى

صلاة العصر على قيراطٍ قيراط . ثمّ قال : من يعمل لي من صلاة
العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين
يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين
. ألا لكم الأجر مرتين . فغضبت اليهود والنصارى فقالوا : نحن
أكثر عملاً وأقلّ عطاءً . قال الله : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟
قالوا : لا . قال : فإنه فضلي أعطيه من شئت^(١)

(١) فتح الباري ٦/ ٤٩٥ حديث رقم ٣٤٥٩ .

٢- صدر السّورة الكريمة :

أ - أسماء الله الحُسنى المنطوقة والمفهومة :

مما يكاد يختصّ به صدر سورة الحديد المدنيّة الكريمة بين سائر سور القرآن الكريم ، بما في ذلك بقيّة المسبّحات ، وهي الحشر ، و الصّف ، والجمعة ، والتّغابن ، أنّه يشتمل في السّت الآيات الكريمات التي يتألّف منها الصّدر على أكبر عددٍ من أسماء الله تعالى الحُسنى المنطوقة والمفهومة .

هذه هي الآية الكريمة الأولى من سورة الحشر . قال عزّ من قائل : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ويأتي بعد ذلك الحديث عن إخراج الله تعالى الذين كفروا من يهود بني النضير من ديارهم وإجلالهم المرّة الأولى سنة أربع من الهجرة^(١)

والآية الكريمة الأولى من سورة الصّف تشبه تماماً آية سورة الحشر . قال عزّ من قائل : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ويأتي بعد ذلك نداء الله تعالى للمؤمنين وخطابهم في ثلاث آياتٍ كريماتٍ يحثّهم فيها على تحويل

(١) لسورة الحشر اسمٌ آخر هو سورة بني النضير انظر فتح الباري ٨ / ٦٢٩ حديث رقم ٤٨٨٣ والسيرة النبوية ٣ / ١٩٩ .

القول في مجال القتال في سبيل الله تعالى إلى عمل ، وبيّن لهم حبه عز وجلّ للذين يقاتلون في سبيله صفّاً منتظماً كأنهم بنيانٌ مرصوص .

وهذه هي الآية الكريمة الأولى من سورة الجمعة . قال عزّ من قائل : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ويأتي بعد ذلك الحديث في ثلاث آيات كريماتٍ عن فضل الله تعالى العظيم على العرب الأميين الذين بعث الله تعالى فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله تعالى ، ويطهرهم ، ويعلمهم الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، وعن فضل الله تعالى على اللاحقين بهم والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

وهذه هي الآية الكريمة الأولى من سورة التغابن . قال عزّ من قائل : ﴿ يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ويأتي بعد ذلك خطاب الحقّ جلّ وعلا للناس عموماً في ثلاث آيات كريمات يبيّن فيها خلقه وتصويره لهم وعلمه بما يسرون وما يعلنون ، وخلقه للسّماوات والأرض وعلمه المحيط بما فيها .

فلنتحوّل إلى الآيات الكريمات الستّ الأولى من سورة الحديد . قال عزّ من قائل : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ^ط

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تُحْيِي ۚ وَيُمِيتُ ۚ
 وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۚ وَهُوَ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
 اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ
 مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرٌ ﴿١٠٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٥﴾
 يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٦﴾ .

وأسماء الله تعالى الحسنى المنطوقة في الآيات الكريمة هي
 لفظ الجلالة الله ، والعزیز ، والحكيم ، والقدير ، والأول ، والآخر ،
 والظاهر ، والباطن ، والعليم ، والبصير .

وأسماء الله تعالى الحسنى المفهومة ضمناً من الآيات
 الكريمة كثر . ويصح أن يفهم من تسبيح ما في السماوات
 والأرض الله تعالى بقول : ﴿سبحان الله﴾ أي تنزيهاً لله تعالى عن
 كل ما أحقه به الظالمون ، يصح أن يفهم مجموعة من الأسماء منها
 الواحد ، والأحد ، والفرد ، والصمد . كما يصح أن يفهم من
 الآية الكريمة الثانية مجموعة من الأسماء منها الملك ، والمالك ،
 والمحیی ، والممیت ، والمبدئ ، والمعید ، والخالق ، والبارئ ،
 والمصور ، والحي ، والقيوم ، والقادر والمقتدر . وهذه الأسماء

الحُسْنَى تُفْهَمُ كَذَلِكَ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الرَّابِعَةِ ، إِضَافَةً إِلَى مَجْمُوعَةٍ
أُخْرَى مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَمِنْهَا الرَّقِيبُ وَالْحَسِيبُ . وَيَصِحُّ أَنْ
يُفْهَمَ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْخَامِسَةِ: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾
اسْمَا الْبَاقِي وَالْوَارِثُ . كَمَا يَصِحُّ أَنْ يَفْهَمَ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْآيَةِ
الْكَرِيمَةِ السَّادِسَةِ: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ اسْمَ الْخَيْرِ . وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ .

ب- إرضاء العقل بجليل المعاني وإشباع النفس بجميل المباني :

القرآن الكريم هو النصّ الذي يرضى كلّ عقل بفصوص حكمه وجميل معانيه ، ويشبع كلّ نفسٍ بلذيد نظمه وجميل مبانيه. ونحن نودّ أن نتبيّن التوازن العجيب بين المعنى والمبنى في صدر السّورة الكريمة ، أي في الآيات الكريمة الستّ الأوّل . سبح لله تعالى بقول : ﴿ سبحان الله ﴾ كلّ ما في السّماوات والأرض ، ونزّهه عزّ وجلّ عن كلّ ما ألحقه به الظالمون كلّ ما في السّماوات والأرض . وفي استعمال اسم الموصول : "ما" لغير العاقل تغليباً لغير العاقل . وربما كان في استعمال : "ما" إيحاءً إلى تقصير كثير من النّاس في جنب الله تعالى ، ذلك التّقصير الذي قرّره الآية الكريمة الثامنة عشرة من سورة الحجّ . قال عزّ من قائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ ﴾ وإنّ التنزيه ذاته إيحاءً إلى تقصير هذا الكثير من النّاس في جنب الله تعالى الذين ألصقوا به عزّ وجلّ ما لا يليق بجلاله وعظّمته .

وهكذا يكون القول: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^ط
استشعاراً من المسبِّحين وإيقاناً من المنزهين بوحداية الله تعالى ،
ويكون القول: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المشتمل على اثنين من
أسماء الله تعالى الحسنى مبيناً عزّة الله تعالى في ملكه ، وحكمته في
صنعه ، وتقديره ، وتدبيره ، وفي كلّ شيءٍ سبحانه. وبذلك يكون
صدر الآية الكريمة متعلقاً بالمخلوقات الموحّدة لله تعالى المنكرة
على المشركين شركهم . ويكون عجز الآية متعلقاً بعزّة الله تعالى
وحكمته .

والله تعالى العزيز في ملكه الحكيم في صنعه له ملك
السّموات والأرض والسّيّطرة عليهما ، فهو يحيى من يريد إحياءه
من خلقه ، ويميت من يريد إماتته . والإحياء والإماتة إيماءٌ إلى
قدرته عزّ وجلّ المطلقة على كلّ شيءٍ أرادته . إنّ الله تعالى العزيز
الحكيم هو المَلِكُ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِيمَا يَمْلِكُ سُبْحَانَهُ . قال تعالى
: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾ ويصحّ أن يكون ملك السّموات والأرض المتقدّم في
الذّكر في الآية الكريمة متعلقاً بصفة العزّة المتقدّمة في الذّكر في
الآية الكريمة السّابقة . ويصحّ أن يكون الإحياء والإماتة وهما

رمزان للقدرة المطلقة متعلقين بصفة الحكمة المتأخرة في الآية
الكريمة السابقة .

والله تعالى العزيز الحكيم الملك المحيي المميت القادر هو
الأول والآخر فلا شيء قبله ولا شيء بعده بشأن حقيقة الزمان ،
والظاهر والباطن فلا شيء فوقه ولا شيء دونه بشأن حقيقة
المكان . وهو عز وجل بكل شيء عليم ، ومحيط بكل شيء علماً
. قال تعالى ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴾

والله تعالى الذي له ملك السموات والأرض ، والقدرة
عليهما ، والعلم بكل شيء فيهما ، هو الذي خلقهما في ستة
أيام، الله تعالى أعلم بحقيقتها ، ثم استوى على العرش استواءً يليق
بجلاله وعظمته دليل الحياة والقيومية . ومن مظاهر علمه عز وجل
بكل شيء أنه يعلم ما يدخل في باطن الأرض كالماء والأموات ،
وما يخرج منها ويظهر كالنبات والمعادن ، وما ينزل من السماء
كالرحمة والعذاب ، وما يصعد فيها كالملائكة والأعمال . وبشأن
ما يدخل في الأرض وهو المتقدم في الذكر ، يتفق في الاتجاه مع ما
ينزل من السماء المتقدم في الذكر كذلك . وبشأن ما يخرج من
الأرض وهو المتأخر في الذكر ، يتفق في الاتجاه مع ما يصعد في

السَّمَاءِ المتأخَّرِ فِي الذِّكْرِ كَذَلِكَ . وَلَا حُدُودَ لِرِضَا الْعَقْلِ وَاطْمِئْنَانِ
النَّفْسِ لِكُلِّ ذَلِكَ الْإِنْسِجَامِ فِي الْمَعَانِي مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ،
وَالاتِّفَاقِ فِي الْإِتِّجَاهِ .

وَبشَانِنَا نَحْنُ الْبَشَرِ فِي مَجَالِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ ، اللَّهُ
تَعَالَى هُوَ مَعْنَا ، عَلِيمٌ بِنَا خَبِيرٌ بِمَا فِي صُدُورِنَا وَأَعْمَاقِنَا . وَهُوَ جَلٌّ
وَعَلَا بَصِيرٌ بِمَا نَعْمَلُ ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ عِزٌّ وَجَلٌّ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِنَا ،
كَمَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَقْوَالِنَا ، وَنِيَّاتِنَا ، وَوَسَاوِسِ نَفُوسِنَا .
إِنَّهُ جَلٌّ وَعَلَا الْبَصِيرِ بِظَوَاهِرِ أَعْمَالِنَا وَأَقْوَالِنَا ، الْخَبِيرِ بِبِوَاطِنِ
أُمُورِنَا وَأَحْوَالِنَا ، فَهُوَ عِزٌّ وَجَلٌّ : ﴿ وَالظَّهْرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ قَالَ تَعَالَى :
﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۗ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

وَيَتَأَكَّدُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْخَامِسَةِ مُلْكُ اللَّهِ تَعَالَى لِلسَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، مَعَ الْإِهْتِمَامِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . إِنَّ أُمُورَ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ
تُرْجَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ يَجَازِي اللَّهُ

تعالى كلاً بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . قال تعالى : ﴿
لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾
وإن ملك الله تعالى للسموات والأرض ورجوع أمور
الخلائق إليه عز وجل من مظاهر القدرة المطلقة له جلّ وعلا .
وهذه القدرة المطلقة تتجلى كذلك في إدخال الله تعالى آية الليل
الممحوة في آية النهار الظاهرة فيطول النهار صيفاً بقدر ما نقص
من الليل ، وفي إدخال النهار في الليل فيطول الليل شتاءً بقدر ما
نقص من النهار . وفي بعض الأوقات يتساوى الليل والنهار بإرادة
الله تعالى .

وكما أكّدت الآية الكريمة السادسة والأخيرة في الصدر
قدرة الله تعالى المطلقة أكّدت علمه المحيط . فالله تعالى هو العليم
بذات الصدور ، ودفائن القلوب ، ووساوس النفوس . وكذلك
يصح أن نتبين في هذه الآية الكريمة السادسة اسمي الذات العلية
: ﴿الظَّهْرُ﴾ و ﴿الْبَاطِنُ﴾ إن الله تعالى يدخل الليل ، وهو
الأصل والأول ، في باطن النهار ، ويدخل النهار ، وهو الطارئ
والعارض ، في باطن الليل . قال تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

ولا يخفى أنّ السّماوات والأرض محور حديث الآيات
السّتّ الكريمة ، فقد جاء ذكر كلّ من السّماوات والأرض
خمس مرّات في الآيات الكريمة السّتّ . إنّ السّماوات والأرض
وما فيهما ومن فيهما الكونُ كلّهُ . لقد تحدّثت الآيات الكريمة
عن الحقّ جلّ وعلا الذي له الأسماء الحُسنى والصفّات العلى ،
والذي بيده كلّ شيء ، والذي تُرجع إليه جلّ وعلا الأمور كلّها
في الأولى والآخرة .

وهكذا يقنع القرآن الكريم كلّ عقلٍ حصيفٍ بجليل معناه ،
وبشبع كلّ نفسٍ مطمئنّةٍ بجميل مبناه ، ويرضى كلّ أذنٍ واعيةٍ
بلذيد نظمه وعذوبة أصواته . والله تعالى أعلم

٣- روعة الذِّكْر والحذف :

الآية الكريمة مجال الدراسة هي الآية الكريمة العشرون . قال عزّ من قائل : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَهُ مُمْصَفًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

بإذن الله تعالى سوف ننظر إلى الآية الكريمة في ضوء الآية

الكريمة السابعة والتسعين من سورة التحل . قال عزّ من قائل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وفي ضوء الآية الكريمة السابعة والسبعين من سورة القصص . إنّها الآية الكريمة التي يقصّ فيها الحقّ جلّ وعلا بعض ما جرى على ألسنة قوم قارون الباغي كي ينتهي عن بغيه . قال عزّ من قائل : ﴿ وَأَتَّبَعِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

إنّ النظرة إلى الآية الكريمة من سورة الحديد في ضوء مثل هاتين الآيتين الكريمتين تعنى أن الذين يعملون الصّالحات ويريدون

بها وجه الله تعالى سوف يحييهم الله تعالى الحياة الطيبة في الأولى والآخرة ، وأن من حق هؤلاء المؤمنين ألا ينسوا نصيبهم من الدنيا وحظهم من متعتها في ضوء ما بينه الشارع الحكيم . وبناءً على ما سبق يكون المراد تبين الحياة الدنيا على حقيقتها ، لأصحابها الذين جعلوها منتهى همهم ومبلغ علمهم .

وبشأن روعة الذكر والحذف في الآية الكريمة نودّ أن نومي إلى تلك الروعة في هيئة نقاط :

أ- من البين أننا بصدد تشبيه تمثيلي ، وأن المشبه هو الحياة الدنيا ، وأن المشبه به هو النبات الذي تحوّل حطاماً ، وأن وجه الشبه منتزِعٌ من متعدّد .

ب- المشبه في الآية الكريمة منتزِعٌ من الحياة الدنيا حال الإقبال ، والمشبه به منتزِعٌ من النباتات حال الإدبار ، وذلك بعد ذكر السبب في إعجاب الزّراع بالنبات ، وهو الحُضْرَةُ والنَّضْرَةُ ، وذلك في القول : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ إِنَّ ثَمَّةَ إعجاباً بالحياة الدنيا من قبل أصحابها الكفار في المقام الأوّل الذين يكفرون ويسترون نعم الله تعالى عليهم بالشرك ولا يشكرون ، وإعجاباً بالنبات من قبل أصحابه الكفار ، بمعنى الزّراع ،

لأنهم يسترون البذور عند حرث الأرض . وقد جاء ذكر الإعجاب في غير موضع الاستحسان في مثل قول الحق جلّ وعلا في سورة المائدة^(١) : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

ب- ذكرت الآية الكريمة خمس صفات للحياة الدنيـا بقصد التحذير منها ومن إغراءاتها . وهي صفات مرتبة وفق حظّ الصّفة الأكبر ، بالقياس إلى التي تليها ، من القدرة على التحذير والتنفير . وأولى الصّيفات اللّعب ، يليها اللّهو ، فالزينة ، فالتفاخر ، فالتكاثر . ويتأكّد التّدرج في ترتيب الصّيفات وفق الحظّ الأكبر من القدرة على التحذير والتنفير حينما نذهب مع القائلين بأنّ الصّيفات كأنّها رُتبت وفق ترتيب مراحل عمر الإنسان . إنّ اللّعب من صفات الأطفال العيال .

وإنّ اللّهُ ————— و م ————— ن

(١) الآية ١٠٠ .

صفات الشباب وهم في شَرِّهِ وفي مقتبل العمر . وإنَّ الاهتمام بالزينة من صفات الإنسان إذا بلغ الأشدَّ في حدود سنِّ الثلاثين مثلاً . وإنَّ التفاخر بين النَّاس إذا بلغ الإنسان نهاية الأشدَّ وبلغ سنِّ الأربعين مثلاً . وإنَّ التكاثر بين النَّاس في الأموال والأولاد إذا بلغ الإنسان مرحلة الكهولة والشيخوخة . يقول المثل^(١) : من سرَّه بنوه ساءتَه نفسه .

ولا يخفى أنَّ توزيع الصِّفات على مراحل العمر من الأمور الاجتهادية التي قد تختلف بشأنها آراء العلماء . ولا يخفى كذلك أنَّ الحديث هنا عن أولئك الذين أعرضوا عن الآخرة وأقبلوا على الحياة الدُّنيا وجعلوها منتهى همِّهم ومبلغ علمهم . ولا يخفى وراء ذلك في المقابل أنَّ كلَّ عملٍ صالحٍ يقوم به المسلم وهو يريد به وجه ربِّه الأعلى هو عبادةٌ في الإسلام ، بما في ذلك لقمة الطَّعام التي يضعها الزوج في فم زوجته^(٢) إنَّ على الإنسان العاقل أن يأخذ من دنياه لآخرته . وقد قال عزَّ من قائل^(٣) : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وإنَّ المؤمن حينما يدرك حقيقة الدُّنيا عند أصحابها الذين جعلوها منتهى همِّهم ويعلم

(١) مجمع الأمثال ٢/٣٠٠ رقم ٤٠١٨ .

(٢) انظر -مثلاً- فتح الباري ٥/٣٦٣ حديث رقم ٢٧٤٢ .

(٣) سورة الذَّاريات ٥٦ .

صفتها المرغوب عنها كما بيّنت الآية الكريمة يزداد استمساكاً بالطريق المقابل الصحيح الذي ترشد إليه على الفور الآية الكريمة التالية الحادية والعشرون . قال عزّ من قائل : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۗ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾ .

د- بداية الحديث عن المشبه به في القول : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ يومئى إلى أنّ صدر الآية الكريمة كأنّ أصله: اعلّموا أنّما مثل الحياة الدّنيا ، أي صفة الحياة الدّنيا وشبهها ، كمثل غيثٍ أعجب الكفّار نباته . وقد أغنى عن مجيء لفظة مثل في الصّدر ذكر الصّفات المتعدّدة للحياة الدّنيا . وبداية الحديث عن المشبه به هنا ليس فيه عن المشبه به إلّا لفظة نبات . وقد فهمنا خُضرة التّبات ونضرتة من إعجاب الزّراع بذلك التّبات . وإعجاب أصحاب الزّرع بالتّبات من جنس إعجاب أصحاب الحياة الدّنيا بزهرتها الدّابلة . إنّ على كلّ من الفريقين أن يتجاوز مرحلة الإعجاب بالمنظر الخارجيّ إلى المخبر بجني الثّمار . بشأن الحياة الدّنيا تبينّ في الآية الكريمة التّالية الأمر باستباق

الخيرات لدخول الجنّات . وبشأن التّبات يصحّ أن نستأنس بالآية
الكريمة السّابعة والأربعين من سورة يوسف عليه السّلام التي بين
فيها يوسف عليه السّلام لساقي الملك الذي طلب منه تعبير رؤيا
الملك بأنّ عليهم بعد أن يزرعوا سبع سنواتٍ بجدّ واجتهادٍ أن
يتزكوا ما يحصدونه في سنبله إلاّ القليل من الحبّ الذي يأكلونه
على الفور . قال عزّ من قائل^(١) : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا
فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾

إنّ الحياة الدّنيا ينبغي أن توظّف توظيفاً حسناً بعمل الصّالحات قبل

ذبول زهرتها

وإنّ التّبتة ينبغي المبادرة في الوقت المناسب إلى جني ثمرتها
وحسن توظيفها قبل ذهاب خضرتها ونضرتها .

وهكذا يكون التحذير من الإعجاب بجمال شكل التّبات،
والغفلة عن جني الثّمار ، خاصّة وأنّ التّبات إنّما بما بفعل الغيث
الذي جاء بعد طول انتظار الزّراع له . إنّ العبث كلّ العبث في
اكتفاء أصحاب الدّنيا والزّرع بالإعجاب بظاهر الحياة الدّنيا
والزّرع .

(١) سورة يوسف ٤٧ .

هـ- إذا كان التحذير من الاغترار بخُضرة النَّبات ونُضرتَه
إيماءً في القول : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ فإنه يكون
صريحاً في القول بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَمًا ﴾ والمعنى ثم يبس النَّبات فتراه أيها الإنسان مائلاً إلى
الصُّفرة دليل الذُّبول فالموت ، ثم يكون حطاماً وفتاتاً وهشيماً
تذروه الرِّياح .

و- بداية القول عن النَّبات الأخضر النَّاضر : ﴿ كَمَثَلِ
غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ وفيها التحذير إيماءً من الاغترار
بخُضرة النَّبات ونُضرتَه ، استمرارٌ للتحذير إيماءً من الحياة الدُّنيا
متاع الغرور في صدر الآية الكريمة : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾

ز- إنَّ حديث المشبّه به عن النَّبات وقت الإِدبار قادرٌ
على الإلقاء بظلاله على المشبّه الذي يتحدّث عن الحياة الدُّنيا
وقت الإقبال بحيث تحلّ في المشبّه الصِّفات المرغوب عنها ، محلّ
الصِّفات المرغوب فيها . وإنَّ حديث المشبّه عن الدُّنيا وقت
الإقبال قادرٌ على الإلقاء بظلاله على المشبّه به الذي يتحدّث عن

النَّبات وقت الإِدبار ، بحيث تبرز الصِّفات المقابلة المرغوب فيها
التي تبين سرَّ إعجاب الرِّزاع بالنَّبات .

ج- مع أنّ صفات الحياة الدُّنيا في الآية الكريمة هي في
حال الإقبال فإنَّها صفاتٌ مرغوبٌ عنها في الحقيقة ، وكذلك
صفات النَّبات الذي ييس واصفرَّ وعاد هشيمًا ، وهذا من باب الأحرى

ط- حياة المؤمن الذي يريد بعمل الصّالحات وجه ربّه
الأعلى جدُّ وانضباطٌ بدل اللُّعب واللّهو ، وتواضعٌ وتطامنٌ بدل
الكبر والتّفاخر ، وشكرٌ لله تعالى على نعمتي المال والبنين بدل
التّكاثر الذي لا حدّ له حتّى زيارة المقابر .

ي- كلٌّ من يقرأ الآية الكريمة يدرك المعنى المقصود ،
ويتأكّد هذا الإدراك بالانتهاء إلى التّذليل في الآية الكريمة ، قال
تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ ﴾ وتكمن الصّعوبة في
اصطياد هذا الإدراك بالقلم وتدوينه على الورق ، على نحو المحاولة
التي قمنا بها . ما أروع صدر التّشبيه التمثيلي في حديثه عن الحياة
الدُّنيا وقت الإقبال ، وقَدَفَ هذا الحديث إلى الذّهن بالحياة الدُّنيا
وقت الإِدبار ، لأنّ الحديث عن الحياة الدُّنيا من جهة التّحذير من

الاغترار بها . وقد تبين أنّ الكلام المحذوف كثير . وما أروع عَجْزَ التشبيه التمثيليّ في حديثه عن النَّبات وقت الإِدبار ، وقَدَفَ هذا حديث إلى الذّهن بالنّبات وقت الإقبال . وقد ساعد هذا القول : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الذّهن على استدعاء صفات النَّبات وقت الإقبال .

ك- ومّا يساعد الذّهن على الوصول إلى الغاية المرجوة من الحذر من الاغترار بالحياة الدّنيا، وعودة الذي زلّت به النّعل وقتاً من الأوقات ، والتّوبة إلى الله تعالى توبةً نصوحاً القول بعد المثل : ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ إنّ العذاب الشّديد في الآخرة لمن غرّته الحياة الدّنيا ، وإنّ المغفرة من الله تعالى لمن سأل الله تعالى صادقاً أن يغفر ذنبه ، وإنّ الرّضوان من الله تعالى لمن كان صادقاً في توبته وأوبته إلى الله تعالى . وواضح أنّ العذاب الشّديد لمن اتّخذ الحياة الدّنيا لعباً وهواً ، وأعجبته زينتها البارزة ، وخدعته فتنها الظّاهرة حتّى توفّاه الله تعالى . وإنّ تقديم العذاب الشّديد يتّمشّى مع فحوى التشبيه التمثيليّ بعدم الاغترار بالحياة الدّنيا . وإنّ تأخير المغفرة والرّضوان يتمشّى مع من طلب من الله تعالى أن يغفر له اغتراره بالحياة الدّنيا وتاب إلى الله تعالى

توبةً نصوحاً . وهكذا يكون المتقدم مع المتقدم ، والمتأخر مع المتأخر . ويتوج كل ذلك بالتذليل الذي يصرح بكون الحياة الدنيا ليست إلا متاع الغرور .

ل- الحديث الموجز عن النبات الذي أعجب الزراع لحضرته ونضرتة في القول: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ قد تجاوز الكثير من المراحل السابقة التي تبدأ بالأرض الميتة ونزول الغيث . وما أكثر الآيات الكريمة التي تحدثت عن تلك المراحل السابقة وكذلك اللاحقة . ونود أن نذكر ببعض تلك الآيات الكريمة مع التفسير الموجز لما يحتاج إلى تفسير . جاء في سورة الروم^(١) قول الحق جلّ وعلا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾

(١) الآيات ٤٨ - ٥١ .

والمعنى ، والله تعالى أعلم : الله تعالى هو الذي يرسل الرياح فتوجد سحاباً فييسطه في السماء كيف يشاء حجماً وكثافةً ، أو يجعله قطعاً متفرقةً مختلفة الأحجام ، فترى أيها الإنسان المطر يخرج من أعماق السحاب وأثنائه . فإذا أصاب الله تعالى بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يفرحون . وإثم كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر ومن قبل نزول الغيث لقانطين مكتئبين واجمين . فانظر أيها الإنسان إلى آثار رحمة الله تعالى بنزول الغيث كيف يحيى الأرض بعد موتها . إن ذلك المحيى للأرض الميتة هو المحيى للموتى يوم القيامة ، وهو جلّ وعلا على كل شيء قدير . ولئن أرسل الله تعالى ريحاً مؤذيةً للنبات فرأى الناس زرعهم قد اصفرّ ومات بعد خضرةٍ ونضرةٍ لظلّوا من بعد موت الزرع يكفرون كلّ نعم الله تعالى العظيمة عليهم .

وجاء في سورة الأعراف^(١) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(١) الآية ٥٧ .

والمعنى ، والله تعالى أعلم : والله تعالى هو الذي يرسل الرياح مبشراتٍ بين يدي رحمته عزّ وجلّ بنزول المطر . حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقلاً بالماء ساقه الله تعالى لبلدٍ ميّتٍ بالجدب فأنزل به الماء فأخرج به من كلّ الثمرات . في مثل هذه الطّريقة التي أحيا الله تعالى فيها الأرض الميتة بإخراج النّبات يخرج الله تعالى الموتى ويعيّنهم من قبورهم أحياء يوم القيامة ، لعلنا نتعظ ونعمل ليوم البعث .

وجاء في سورة الحجّ^(١) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ والمعنى ، والله تعالى أعلم : وترى أيها الإنسان الأرض هامدةً وساكنة . فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وتحركت بالنبات الذي يشقّ الأرض شقاً ، وارتفعت بالنبات ، وأنبتت من كلّ نوع يملأ النّفس بهجةً والعين لذّةً والقلب سرورا .

وجاء في سورة الزمر^(٢) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْرِجُ فَتَرَبُّهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(١) الآية ٥ .

(٢) الآية ٢١ .

والمعنى ، والله تعالى أعلم : ألم تر أيها الإنسان أن الله تعالى أنزل من السماء ماءً عذباً فراتاً فأجراه في أعماق الأرض عيوناً ، وفجّره منها ينابيع تجيش بذلك الماء العذب الفرات . ثم يخرج الله تعالى بذلك الماء زرعاً مختلفاً ألوانه وأنواعه ، ثم يبس فتراه مصفراً بعد الخُضرة والنَّضرة ، ثم يجعله هشيماً تذروه الرياح . إن في ذلك لعبرةً لأولى العقول الرَّاجحة .

وجاء في سورة التّور^(١) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّتِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ والمعنى ، والله تعالى أعلم : ألم تر أيها الإنسان أن الله تعالى يسوق سحاباً برفقٍ ثم يجمع متفرّقه ثم يجعله متراكماً بعضه على بعض فتري المطر يخرج من وسطه وأعماقه . وينزل الله تعالى من السماء من جبال السحب فيها من برد ، فيصيب بذلك البرد من يشاء فيهلك به زرعه وماله ، ويصرفه عمّن يشاء من خلقه . يكاد الضوء الشديد للبرق يذهب بأبصار الذين يبصرونه .

(١) الآية ٤٣ .

وجاء في سورة يونس^(١) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والمعنى والله تعالى أعلم : إنّما مثل الحياة الدنيا وصفتها في سرعة فنائها كمثل ماءٍ أنزله الله تعالى من السماء فاختلط بسببه نبات الأرض وتداخل بعضه في بعض وتشابك . وهذا النبات ممّا يأكل الناس منه والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها المصطنع بفعل الإنسان ، وتزيّنت الأرض ذاتها فظهرت في أبهى حلّة وأجمل منظر ، وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها وأنّها طوع بناهم ، أتاها أمرنا بالهلاك ليلاً أو نهاراً فجعلناها كأنّما حُصِدت بالمنجل حصداً ، وجعلنا تلك الزروع الخضرة النضرة كأنّها لم تكن قائمة بالأمس أصلاً . في مثل هذه الطّريقة يفصّل الله تعالى الآيات لقوم يتفكّرون ويتدبّرون .

(١) الآية ٢٤ .

وجاء في سورة الكهف^(١) قول الله تعالى : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ
مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا آءِ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
مُّقْتَدِرًا ﴾

ولا يخفى أنّ من صميم أهداف الآيات الكريمة التي
تتحدث عن الحياة الدنيا وتشبّثها بالنبات الذي أصبح هشيمًا
وحطامًا الحثّ على الإيمان بالبعث والعمل لما بعد الموت .
وهكذا تتبيّن روعة كلّ من الذكر والحذف في الآية الكريمة
العشرين من سورة الحديد المدنيّة الكريمة . والله تعالى أعلم .

(١) الآية ٤٥ .

الخاتمة

بفضلٍ من الله تعالى ونعمة اشتملت الدراسة في الصفحات السابقة وهي بعنوان : لمحات في إعجاز سورة الحديد ، على تمهيدٍ تحدّث عن بعض المسائل المتعلقة بالسّورة الكريمة ، وعلى لمحاتٍ في إعجاز السّورة الكريمة . وقد اشتملت الدراسة عن اللّمحات على محاولة تبيين وَحْدَةِ السّورة الكريمة عضوياً ، وكيفية أخذ قضايا السّورة الكريمة بَعْضِهَا بِحُجَزِ بعض ، وعلى الوقوف ملياً عند صدر السّورة الكريمة الذي يتكون من ستّ آياتٍ كريمات ، وذلك من جانبين اثنين . أحدهما اشتمال هذا الصّدر على عددٍ كبيرٍ من أسماء الله تعالى الحُسْنَى المنطوقة والمفهومة ، وآخرهما إرضاء العقل بجميل المعاني ، وإشباع النّفس بجميل المباني . وقد اشتملت الدراسة عن اللّمحات أخيراً على الوقوف ملياً عند مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم والسّورة الكريمة تحت عنوان : روعة الذّكر والحذف . لقد كانت الآية الكريمة العشرون ميدان الدراسة لهذه الرّائعة الأسلوبية .

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم سبحانه ، وأن يتقبّله ، إنّه جلّ وعلا أكرم مسئول وأعظم مأمول . وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

فهرست المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
ابن عطية
(القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية
الأندلسي) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.
تحقيق المجلس العلمي بفاس . المغرب ١٣٩٥ هـ
١٩٧٥ م ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م
- ابن كثير
(عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير) تفسير
القرآن العظيم . كتاب الشعب بمصر تحقيق (محمد
إبراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور ، عبد العزيز غنيم
بدون تاريخ .
- ابن هشام
(عبد الملك) السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا
إبراهيم الإياري ، عبد الحفيظ شلبي . حلي
١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م تصوير بيروت . بدون تاريخ .
- أبو حيان
(محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان)
البحر المحيط . تصوير بيروت . بدون تاريخ .
- الزّمشري
(أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمشري
الخوارزمي) الكشاف . حلي ١٣٦٧ م ١٩٤٨ م

- السّيوطي (جلال الدين عبدالرحمن) الإتقان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٧٤م وتفسير الجلالين .
- الطّبري (أبو جعفر محمد بن حرير) جامع البيان في تفسير القرآن . الطبعة الأولى بولاق ١٣٢٩هـ
- القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري) الجامع لأحكام القرآن . دار الشعب القاهرة . بدون تاريخ .
- الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري) مجمع الأمثال . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م .
- النّووي (أبو زكريّا محي الدين يحيى بن شرف) تهذيب الأسماء واللّغات . تصوير بيروت . بدون تاريخ .
- النّيسابوري (الحسن بن محمد بن حسين) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان . مطبوع بهامش تفسير الطّبري .
- المعجم مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة . الوسيط

فهرست الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٣	المقدّمة
٤	تمهيد : مسائل متعلّقة بسورة الحديد
٧	لمحات في إعجاز السّورة الكريمة
٨	١- وَخِذْ السّورة الكريمة عضوياً
٩	أ- الله تعالى الخلق
١١	ب- الله تعالى الأمر
١٩	ج- أرسل الله تعالى رسله بالبينات
٢٣	٢- صدر السّورة الكريمة
٢٣	أ- أسماء الله تعالى الحُسنى المنطوقة والمفهومة.
٢٧	ب- إرضاء العقل بجميل المعاني ، وإشباع النّفس بجميل المباني
٣٣	٣- روعة الذّكر والحذف
٤٨	الخاتمة
٤٩	فهرست المصادر والمراجع
٥١	فهرست الموضوعات